محاولة الانقلاب في الاردن

شرخ أفقي طبيعي في الانقسام "العمودي" المصطنع

انباء محاولة الانقلاب في الاردن ، على اختلاف الروايات التي نقلتها ، تطرح من جديد الازمة الحقيقية في بناء النظام الهاشمي ومنطلقاته الطبقية والاقتصادية والسياسية ومرتكزاته الاساسية.

ولا شك في ان ابرز ما في ازمة تكوين ذلك النظام هو الاصطناع : اصطناع في النشوء واصطناع في التركيب واصطناع في المهمة .

الاصطناع في النشوء

لجميع بلدان الدنيا ، وحتى اجزاء البلدان التي مزقتها العوامل الخارجية ، مقومات او شبه مقومات اجتماعية واقتصادية وتاريخية .. اما امارة شرقي الاردن فلم تكن غير جزء متصل باجزاء الاقطار العربية المجاورة لها .. فهي قطعة من فلسطين والعراق وسوريا على امتداد التاريخ ومحطة بين شبه الجزيرة العربية وبين تلك الاقطار .. حتى كان التخطيط الاستعماري ـ الصهيوني لاقامة الكيان الاسرائيلي في ارض فلسطين والذي ارتبط منذ التفكير به ، بالمخططات الاستعمارية لضرب نهوض الشعب العربي واجهاض تحرره والهيمنة عليه ارضا وشعبا وامكانيات .. فكان من جملة الاجراءات الاستعمارية التي رسمت على الورق في البداية داخل لقاءات حكام لندن وباريس آنذاك ، ان « زبحت » عدة شخوط بالرصاص على الخريطة العربية بين العراق وسوريا وفلسطين وتقرر ان يقوم هناك مخفر محلي تتحرك مهماته على دائرة ١٨٠ درجة : قطع الاتصال بين شمال البلاد العربية وجنوبها .. بالاضافة الى عزل الساحة الفلسطينية المرشحة للالتهاب عن الجماهير العربية في العراق وسوريا .. اي بشكل آخر حماية خاصرة الكيان الاسرائيلي ـ خاصة في مرحلة نشوئه ـ من ان تصيبه الحربة الشعبية العربية بضربة قاتلة في تلك الخاصرة ..

الاصطناع في التركيب

لم يكن بالامكان فرز شعب شرقي الاردن عن الشعب في فلسطين وسوريا والعراق وتقطيع اوصال ذلك الشعب ، ثم مطالبته بالتآمر على نفسه الممثلة باجزائه الاخرى .. وكان لحل هذه المشكلة ان استغلت المكانة الوطنية والدينية للشريف حسين وعائلته ، من اجل تطوير تلك المكانة نحو نوع من الشغف الرضي بالسلطة والحكم .. وآتي بأحد ابناء الحسين وجرى تنصيبه اميرا على العشائر القاطنة شرق نهر الاردن بدعم الانكليز ومساعدتهم ..

وقد اخذ الانكليز على عاتقهم تركيب عدة وعتاد ذلك المخفر ، بتسلم اجهزته وادارتها .. فكان الضباط والموظفون الانكليز العمود الفقري لتلك الاجهزة وتلك الادارة .. وسعى الانكليز ـ يشهد الله ـ سعيا حثيثا من اجل تثبيت المقومات العشائرية المتخلفة للعلاقات الاجتماعية في ذلك الجزء المسلوخ ، ومن اجل بلورة نوع من انظمة الحكم العرجاء المجبرة على النسول والارتزاق بين موائد المساعدات الخارجية ..

فكان الاردن فريدا بين جميع البلدان المستعمرة ، في ان الاستعمار « يخسر » عليه بدلا من ان يربح منه .. (طبعا كان الاستعمار يربح من الوظائف التي يستطيع ان يوظف فيها ذلك النظام خارج شخوط الرصاص المسماة حدودا له) ..

وقد عاش الاردن نتيجة ذلك الاصطناع في الكون ، ضمن مواقع العلاقات العشائرية المتخلفة ، وعلى فتات المساعدات الخارجية « برعاه » و « ياخذ بيده » عن الانكليز الساهرة ، ومن ورائها الحركة الصهيونية العالمية ..

طبعا هذا ما كان عليه النظام ، في حين ان الشعب ورغم كل ذلك الاصطناع لم يكن لينفصل عن الشعب العربي في اقطاره الاخرى ، فطالما كان يضرب عرض الحائط بكل عراقيل الانكليز ونظامهم ليشارك الشعب العربي في نضالاته الوطنية ، شارك في الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، وشارك في انتفاضات شعب فلسطين ، وشارك في نضالات شعب العراق ، في الوقت الذي كان فيه نظامه يخدم الاستعمار ضد تلك الثورات والنضالات .

وفيما كان الملك عبد الله يتآمر مع الانكليز وزعماء الحركة الصهيونية ضد كفاح شعب فلسطين كان هناك متطوعون وجنود اردنيون يسقون ارض فلسطين بدمائهم مع اخوة لهم من مختلف البلاد العربية ..

وهذا الزرع الكفاحي الذي سقي بالدم المشترك ، استغله الملك عبدالله فيما بعد وبضمانة من الانكليز ليضم بعض الشعب الفلسطيني وارضه الى مملكته ، ليس بهدف السيطرة واشباع النزوع المرضي للسلطة والحكم فحسب ، بل وكذلك من اجل مصادرة ذلك الجزء من الجماهير الفلسطينية وحجز اخطار نضالها عن الكيان الاسرائيلي على الاقل في مرحلة نشوه وتطور ذلك الكيان .

الاصطناع في المهمات

كان سهلا على الملك عبدالله ان يضم ذلك البعض من فلسطين ، فلا اهل فلسطين ولا اهل شرقي الاردن كانوا يحسون بانهم غرباء .. انهم شعب واحد وارض واحدة ، عبرت وحدتهما عن نفسها بالدم المشترك الذي قدموه على مذبح النضال التحرري ، تماما كما كان يسقيهما على مسار التاريخ وبشكل مشترك ذلك النهر الذي حوله الانكليز والصهاينة من شريان عضوي في الجسم الواحد الى حد فاصل بين شطرين .

لكن التآمر الامبريالي ـ الصهيوني ، كان عليه ، في مرحلة متقدمة ، خاصة بعد استكمال احتلال فلسطين ، من التآمر على الارض الى التآمر على الشعب .. ففي المرحلة الاولى كان ذلك التآمر يقضي بجذب سكان فلسطين الى الخارج وابطال قدرتهم على حماية ارضهم من الصهيونية ، اما في المرحلة الثانية فانقلب دور التآمر وصار موجها نحو الشعب لسحقه والخلاص من كل مطالب بالارض المسروقة .

واذا بالنظام الاردني ، مع كل خبراء الامبريالية والصهيونية يسعون لفصل الشعب الفلسطيني عن الشعب الاردني ، وخلق اي حد ممكن من العداوة بينهما لتسهيل التآمر المشترك عليهما معا .. وقد ظن اولئك المخططون انهم نجحوا لا سيما بعد ايلول ٧٠ بانهم خلقوا انقساما عموديا في صفوف الشعب الواحد .. وراحوا ينجرون للايديولوجية الجديدة ايديولوجية الانقسام العمودي ، حيث الرمز الهاشمي بشكل المحور الاردني الذي تتحلق حوله الشخصية الاردنية في مواجهة الشخصية الفلسطينية .. وبالتآمر والضغط والرشوة والاكراه ، تمكنوا من خلق بعض مظاهر ذلك الانقسام العمودي .. ثم ارتاحوا ظنا منهم انهم قد افلحوا ..

غير ان الحقيقة التاريخية تابى الراحة لمعانديها .. فما لبثت ان كشفت عن نفسها في محاولة الانقلاب الاخيرة ، التي عبرت عن ان الشروخ الافقية في المجتمع هي امر طبيعي لا يمكن لاي انقسام عمودي مصطنع ان يمحوها .

فقد كانت تلك المحاولة انفجارا في ما اعتبره المخططون نواة الكيان الهاشمي ولبنته الاساسية ، وذراعه في الدفاع والهجوم .. وان نجاح النظام في التغلب على تلك المحاولة لا يقلل من اهميتها بشيء .. فلم تكن تلك الاهمية تكمن في نوع النظام الذي كان سيأتي به الانقلاب (وقد يكون افضل او اسوأ من النظام الحالي) بقدر ما كانت في اثبات عدم جدوى محاولات قسر التاريخ وتصنيعه ■■

« نزار سمعان »